

أقول التفرد الاميركي

بقلم غسان سلامة

يسمى الاميركيون الحقبة التي بدأت مع انهيار الاتحاد السوفياتي وحرب الكويت "شباك الفرص"، او النافذة اليها... والمقصود بذلك مرحلة انتهاز الظروف السياسية المناسبة لتحقيق الأهداف البعيدة المدى: تسوية بين اسرائيل والعرب ترضي اسرائيل تماماً ولا تفضح العرب كثيراً، هيمنة اقوى على منابع النفط الخليجية لتوظيفها ضفطاً على الدول المنتجة والمستهلكة على السواء، وتحقيق خروقات تجارية طويلة الأمد في مرحلة الحروب الاقتصادية الحادة بين الدول الأكثر تقدماً.

على مفترق قانا الدامي، بدأ هذا "الشباك" بالاقتال، وبدأت مرحلة انتهاء حقبة الاستفراء الاميركي بالمنطقة حرباً وسلاماً. فعلى رغم تصريحات بريس وأنيللي المؤيدة لذلك الاستفراء، وعلى رغم تمسك واشنطن الصارم به، فإن الواقع يتغير بسرعة تجعل من ذاك الاستفراء هدفاً مستحيلاً.

لقد استطاعت الولايات المتحدة ان تجسد تحالفاً واسعاً ضد العراق، وان تعزله عسكرياً، فعزلته وبدأت بعدها عملية عزل موازية لإيران بينما كانت توقع العديد من اتفاقات الحماية مع دول الخليج الأخرى الخائفة على مصيرها. عام (١٩٩١)، بدت واشنطن "ملكة الحروب" بلا منازع، تمسك بزمام مجلس الامن المطيع، تستصدر ما تشاء من القرارات، تبني التحالفات، وتخوض الحروب بلا خسائر.

وما إن توقفت نار الخليج في صفوان حتى طمعت واشنطن بدور ثان، دور "ملكة التسويات". اذ دعا رئيسها الى مؤتمر مدريد، وسيطرت ادارته تماماً على آلية التهيئة لذلك المؤتمر، وعلى تحديد أسس عمله، كما على تكوين لجانه المختلفة، وعلى وتيرة عمله. وانعقدت الاجتماعات الكثيرة بين العرب والاسرائيليين في مبنى وزارة الخارجية الاميركية، او في ولاية ميريلاند برعاية الاميركيين. وفي حديقة البيت الابيض صافح راين عرفات، وفيها وقعا اتفاقات عديدة كان ثم التفاوض حولها في اوسلو وبريس وطابا والقاهرة ودافوس. كان التفاوض مسموحاً به في كل مكان. ولكن الاميركيين حرصوا على التفرد بالرصيد السياسي، فما قبلوا توقيعاً بغيابهم او في غير مقر إقامة رئيسهم.

هكذا جمعت واشنطن والمد من طرفيه: فهي "ملكة الحروب" في الخليج، و"ملكة التسويات" في المشرق. اين كان الآخرون؟ كانت موسكو منهمكة تماماً في معضلاتها العديدة، القومية والاقتصادية والايديولوجية. كانت باريس تعيش هواجس انهيار الاتحاد السوفياتي وتحديات التوحد الالاماني ومرارة التعايش الصعب بين رئيس اشتراكي وحكومة يمينية، اما ألمانيا فكانت تدفع الثمن الباهظ لدمج جناحها الشرقي في النسق الرأسمالي والديموقراطي بينما كانت بريطانيا تعيش على شفير انهيار محتمل لحكومتها المحافظة ذات الأغلبية المشهة. اما اليابان والصين فبدتا ابعد عن المنطقة من أي وقت مضى.

وعمدت واشنطن، لتعزيز استئثارها بشؤون المنطقة، الى دفع الأمم المتحدة خارج كل مساعي التسوية في الشرق الأوسط. فلم تقبل ان يتحدث امينها العام في مؤتمر مدريد وفرضت عليه ان يرسل ديبلوماسياً واحداً يراقب المؤتمر من دون ان يحق له ان ينسب بنت شفة. وكانت تعارض باستمرار ان يبحث مجلس الأمن في قضايا التسوية، ولم تقبل بذلك الا في حالات دراماتيكية، كانت قد أخفقت في تجنبها، كمثل ابعاد ٤١٥ فلسطينياً الى جنوب لبنان، او مجزرة الخليل وأخيراً اثر مجزرة قانا. بل ذهبت الديبلوماسية الاميركية الى حد محاولة تعطيل كل القرارات الدولية ذات الصلة بالنزاع بين العرب واسرائيل، مما اثار غضب لبنان المتمسك بالقرار ٤٢٥، ومرارة سوريا المتمسكة بالقرارين ٢٤٢ و ٣٢٨، وأسف الفلسطينيين الساعين لايحاء القرار ١٨١.

ونجحت واشنطن هكذا بتحويل مجلس الأمن اداة لتحقيق استراتيجيتها في الخليج في الوقت عينه الذي كانت تهمشه تماماً عن مسيرة التسوية. وقد آمنت هذه الانتقائية الاميركية الكثيرين من ابناء المنطقة من دعاة الكيل بمكيال واحد، كما اشأرت من تلك الاعتباطية اكثر من عاصمة في

أفول التفرد الاميركي

- تمة المنشور في الصفحة (١) -

العالم. ولكن العالم ما كان ليقوى على هذا التحكّم المتفرد تحويلاً، وخصوصاً أن تكاثر الازمات في العالم كان يقوّي من ساعد واشنطن المتجبر. فهي التي هبت لحماية تايوان من صواريخ بيجينغ، وهي التي منعت تركيا واليونان من اللجوء الى السلاح بعد حادثة الجزر، وهي التي فرضت على المتحاربين في البوسنة اتفاق دايتون، وهي الآن ترعى تنفيذه.



في قانا، بدأت المعادلات تتغير. اذ بدا جلياً ان الاستفراد الاميركي وصل الى حدوده القصوى وبدأ الانهك يصيبه من كل جانب. وبصورة ادق، فإن عدداً من الفرضيات التي قام عليها ذلك الاستئثار بدأت بالتداعي.

الفرضية الأولى هي تمكن واشنطن من مواءمة ادعاء دور "الوسيط النزيه" بين الطرفين العربي والاسرائيلي بينما تستمر ساكنة عن عملية اسرائيل العسكرية في لبنان. كانت تلك المواءمة مستحيلة في الاساس ولكن التناقض تفجّر عندما ظهر للجميع انه ليس من "حروب نظيفة" وان كل الحروب لا بد لها، في ساعة تأتي باكرة او متأخرة، من ان توسخ ايدي من يقدمون عليها وكذلك ايدي من يسكت عنهم وان لم يتواطأ معهم. وأمسى على واشنطن ان تختار بين دور "الراعي" المعلن، ودور "حليف اسرائيل" غير المشترك. فارتبكت كثيراً وسارعت الى المنطقة اولا واساساً لمعالجة ذلك الارتباك.

الفرضية الثانية هي ان "الرهاب" حالة منفصلة تماماً عن المعطيات السياسية، يمكن معالجتها من دون تناول القضايا المحورية التي تدفع الدول والقوى الى اللجوء الى الوسائل العنيفة، وكأنه في الامكان معالجة قضية "الكاتيوشا" بدون ذكر احتلال الأرض او كأنه في الامكان وقف العمليات الانتحارية بدون التوصل الى تسوية شاملة ومشرفة يقبل بها الجميع. كان هذا المنطق المجتزأ قد وصل الى حدّه الأقصى في قمة شرم الشيخ، التي اصيبت، هي أيضاً، من جراء قذيفة قانا، فأمست، في المفهوم الذي حاولت اسرائيل واميركا فرضه عليها، طلالاً منسياً.

الفرضية الثالثة هي ان كل الأطراف المنخرطة في التسوية، مصرّة عليها الى حد القبول بكل التضحيات لكي يبقى شمعون بيريس رئيساً لحكومة اسرائيل. صحيح القول ان من يؤيد التسوية يفضل حزب "العمل" على تكتل "الليكود". ولكن الانطلاق من هذا التفضيل الى الاستنتاج ان من يؤيد التسوية قابل ضمناً بكل افعال بيريس هو خاطيء في الاساس، وخصوصاً ان بيريس نفسه لا يبدو كأنه يأخذ في الحسبان اجوال العرب الذين يتمنون نجاحه، فانا به يجرهم ايما اخراج بغزوه الجوي الدامي للبنان، ويحشرهم في موقع صعب في أعين شعوبهم. فتمني فوز بيريس لا يمكن ان يعني للقاهرة ولا لعمان ولا للدوحة ولا لغزة اطلاقاً ليده في شؤون البلاد والعباد بلا قيد ولا شرط.

الفرضية الرابعة التي انهارت هي ان دول العالم اجمع ستبقى ساكنة ساكنة، تصفق لواشنطن عندما تنجح وتأسف معها حينما تفشل. هذه الدول بدأت تتحرك، وجاءت مجزرة قانا بالذات لتثبت ان الحاح باريس منذ اليوم الأول على وقف لاطلاق النار كان له ما يبرره. وحتى بعد ان يتم التوصل الى تسوية جديدة في جنوب لبنان بسعي من كريستوفر وفريقه، وتكون صفحة قد طويت، سيظل على كريستوفر وخلفه ان يتعودا الالتقاء بزملائهما الروس والفرنسيين والطيالان واليابانيين، في دمشق وبيروت وتل ابيب وغيرها من عواصم المنطقة. وعليهما بالتالي ان يأخذنا علماً بأن العالم لن يسلم لهما بعد اليوم بدور البطل الأوحد في شرق المتوسط وغربه، لا في الحرب ولا في السلم.

الفرضية الخامسة التي بدأت بالتداعي تهم لبنان بالذات. ذلك ان واشنطن قد قررت منذ انسحاب المارينز من بيروت عام ١٩٨٤، وكرست هذا القرار خلال حرب الكويت، ان لبنان ما هو الا مساحة تحصل فيها امور بالإجمال غير مريحة. وبالتالي فان امور ذلك البلد ليست في ايدي ابنائه وليست في متناول يد حكومته. وقد عاد كريستوفر الى المنطقة للمرة الثامنة عشرة منذ توليه الوزارة ليكرر المعزوفة نفسها وليوحي ان الطريقة الواقعية لمعالجة الأزمة الراهنة هي في تكريس كوندومينيوم سوري-اسرائيلي ضمنى عليه، أو على الأقل في التفاهم حول مصيره في غياب سلطاته. ولكن هذه الفرضية بدأت هي الأخرى تنهار، اولا واساساً بفضل وعي اللبنانيين أنفسهم والتفاهم حول مؤسساتهم الشرعية وحول حقهم في تحرير ارضهم. وهي تنهار ايضاً بسبب وعي دمشق لأهمية ان يتحدث باسم لبنان سلطاته وحكومته وابناؤه، ولا تستمر هي تقيهم او تتهم بذلك.

قد يأتي الترياق مرة اخرى على يد كريستوفر. ولكن صفحة من الفرضيات بدأت تطوى بينما تدخل المنطقة عهداً جديداً، للناس فيه رأي كما للحكومات. ولعواصم العالم دور كما لواشنطن، وللحقوق فيه وزن كما للتسويات، وللبنان فيه موقع كما لغيره من الدول.

غسان سلامة